

الخطاب الدعوي في المرحلة المقبلة .. آمال وآفاق



الأحد 3 فبراير 2013 12:02 م

د/ عبدالرحمن البر

لقد كثرت مِنُ الله علينا {وَأِنْ تَوَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} [النحل: 18]، ومنها: مِنَّه على الأمة باحتضانها لـ"المشروع الإسلامي"، وتجاوبها مع دعاة الصحة الإسلامية، بعد ثورة عظيمة دفعت الأمة لإعادة رسم خريطة اهتماماتها وعلاقاتها الداخلية والخارجية وفق منظومة القيم التي تميزها وتؤكد هويتها الإسلامية الأصيلة؛ مما جعل الحاجة ماسة إلى أن يراجع الدعاة بين الحين والآخر خطابهم الدعوي شكلاً ومضموناً؛ حتى يُوْتِي أُكْلَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

وفيما يلي عشر من السمات التي أرى أنها يجب أن تتوفر في الخطاب الدعوي؛ لكي يحقق الأهداف المرجوة:

1- ضبط المرجعية للخطاب الدعوي، بأن يكون قائماً على العلم الشرعي، ومنطلقاً من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومستخدماً لتعبيراتها ما أمكن، ومتخلفاً بأدبها على الدوام، مستمسكاً بالتوجيه الحكيم {اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125].

2- وضوح الخطاب وبساطته وعدم تعقيده أو التقعُّر في عباراته وألفاظه، كما هو شأن القرآن العظيم {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 17]، وكما كان شأنه صلى الله عليه وسلم في خطابه الذي وصفته عائشة -رضي الله عنها- فيما رواه أبو داود قالت: "كَانَ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَامًا فَضْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ".

3- شمولية الخطاب وتنوعه ليصل إلى جميع الناس، أطفالاً وكباراً، ورجالاً ونساءً، مثقفين وعواماً، وطلبة علم وعلماء، شاملاً في القضايا والموضوعات التي يطرحها، وفي المدعويين والمخاطبين الذين يتوجه إليهم مهما كانت خلفياتهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية

4- واقعية الخطاب وملاصقته لحاجات الناس ومرعاته للزمان والمكان، وفي هذا الصدد يقول ابن القيم -رحمه الله- في (إعلام الموقعين): "لَا يَتَّفَكَّرُ الْمُفْتِي وَلَا الْحَاكِمُ (يعني القاضي) مِنَ الْفَتْوَى وَالْحُكْمِ بِالْحَقِّ إِلَّا بِتَوْعِينٍ مِنَ الْفَهْمِ: أَحَدُهُمَا: فَهْمُ الْوَاقِعِ وَالْفُوقِ فِيهِ، وَالتَّوَعُّؤُ الثَّانِي: فَهْمُ الْوَاجِبِ فِي الْوَاقِعِ، وَهُوَ فَهْمُ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ فِي هَذَا الْوَاقِعِ، ثُمَّ يُطَبِّقُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، فَالْعَالِمُ مَنْ يَتَوَصَّلُ بِمَعْرِفَةِ الْوَاقِعِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ إِلَى مَعْرِفَةِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ سَبَكَ غَيْرَ هَذَا أَضَاعَ عَلَى النَّاسِ حُقُوقَهُمْ، وَنَسَبَهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ".

5- إيجابية الخطاب وبنائه على حسن الظن بالناس، وتغليب الأمل والتفاؤل والرجاء على التيئيس وسوء الظن، وتجنب الحكم على الناس بالضلال والكفر وتضخيم أخطائهم، والحرص والإصرار على متابعة الدعوة والصبر على المدعويين واستمرار المحاولة في تصحيح مفاهيمهم وإن لم يستجيبوا، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ، قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا».

6- تقدير ظروف المدعويين وأحوالهم والتدرج معهم في طريق الالتزام بأحكام الدين، وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة قالت: "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا نَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْخُلْدُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ؛ لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا؛ لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّانَةَ أَبَدًا".

إن الفساد لم يقع في حياة الناس فجأة، وإنما تراكمت ممارساته على مر السنين حتى استحکم؛ ولذلك فهو يحتاج لحكمة في مقارعتة؛ ولله دُرٌّ عمر بن عبد العزيز الذي قال: "إِنِّي أَعَالَجُ أَمْرًا لَا يَعْين عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، قَدْ فَنِي عَلَيْهِ الْكَبِيرُ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ الضَّغِيرُ، وَفَصَحَ عَلَيْهِ الْأَعْجَمِيُّ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ، حَتَّى حَسَبُوهُ دِينًا لَا يَرُونَ الْحَقَّ غَيْرَهُ".

ومن مواقف الرانعة في ذلك: ما رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أن ابنه عَزِدُ الْمَلِكِ قال له: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُنْفَذَ لِرَأْيِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَأَوَّلَهُ مَا كُنْتُ أَبَالِي أَنْ تُعْلِي بِي وَبِكَ الْقُدُورُ فِي إِيقَادِ هَذَا الْأَمْرِ

فَقَالَ عَمْرٌ: "إِنِّي أَرُوضُ النَّاسَ رِبَاطَةَ الصَّعْبِ، فَإِنْ أَبْقَانِي اللَّهُ مَصِيْبٌ لِرَأْيِي، وَإِنْ عَجَلْتُ عَلَيَّ مَنِيَّةً فَهَذَا عِلْمُ اللَّهِ نِيَّتِي، إِنِّي أَخَافُ أَنْ بَادَهُتُ النَّاسَ بِالَّتِي تَقُولُ أَنْ يُلَجِّنُونِي إِلَى السَّيْفِ، وَلَا حَئِيرَ فِي حَئِيرٍ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالسَّيْفِ".

7- مراعاة الأولويات في الخطاب، فهذا أصل أصيل في فقه الدعوة إلى الله، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي الدعاة بهذا الأسلوب في الدعوة؛ فروى البخاري أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ جِئِن بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ:

«إِنَّكَ بِنَاتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكُتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ

يَذِكُ مَا أَحْبَبْتُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ مَرَّصَ عَلَيْهِمْ حَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَحْبَبْتُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ مَرَّصَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤَدُّ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى مَقَرِّائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَيُّكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمُطْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

وما أروع ما قاله الإمام الشاطبي -رحمه الله تعالى- في الموافقات في هذا المعنى: "وَقَدْ أُذْبِرَ قَالِكَ عَنْ نَفْسِهِ أَنْ عِنْدَهُ أَخَذِيَّتٌ وَعَلِمًا مَا تَكَلَّمَ فِيهَا وَلَا حِدَّتٌ بِهَا، وَكَانَ يَكْرَهُ الْكَلَامَ فِيهَا لَيْسَ تَحْتَهُ عَقْلٌ، وَأُذْبِرَ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ، فَتَبَّهَ لِهَذَا الْمَعْنَى وَصَاطِئَةً: أَنَّكَ تَعْرِضُ مَسْأَلَتَكَ عَلَى الشَّرِيعَةِ، فَإِنْ صَحَّتْ فِي مَبَرَاتِنَهَا، فَمَا نَظَرُ فِي مَالِيهَا بِالنَّبِيَّةِ إِلَى خَالِ الرَّمَانِ وَأَهْلِيهِ، فَإِنْ لَمْ يُؤَدِّ ذِكْرَهَا إِلَى مَفْصِلِ دَعْوَةٍ، فَمَا عَرِضَ بِهَا فِي ذَهَبِكَ عَلَى الْعُقُولِ، فَإِنْ قَبِلْتَهَا، فَلَاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِيهَا إِذَا عَلَى الْعُجُومِ إِنْ كَانَتْ مِمَّا تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ عَلَى الْعُجُومِ، وَإِذَا عَلَى الْخُصُوصِ إِنْ كَانَتْ غَيْرَ لَائِقَةٍ بِالْعُجُومِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِمَسْأَلَتِكَ هَذَا الْمَسْأَلَةُ، فَالسُّكُوتُ عَنْهَا هُوَ الدَّارِي عَلَى وَفْقِ الْمَصْلَحَةِ الشَّرِيعِيَّةِ وَالْعُقْلِيَّةِ".

8- الرفق والرحمة واللين في الخطاب، حتى مع المسيئين، وهذا ما علمنا إياه القرآن في قوله تعالى لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون الذي طغى {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} {طه: 44}، وفي قوله تعالى لرسولنا الكريم: {فَمِمَّا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ يَوْمًا كُنْتُمْ مَطَاً غَلِيظًا الْقَلْبُ لَأُنْفُسُوا مِنْ حَوْلِكَ} {آل عمران: 159}.

ومن النماذج الرائعة في هذا الباب: ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الرجل الذي بال في المسجد، فهَمَّ الناس أن ينالوا منه، فقال لهم: «دَعُوهُ وَأَهْرَبُوا عَلَى يَوْمِهِ دَلُومًا مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَشِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ».

والداعية يجب أن يمثل القدوة في التزامه بهذا الخلق الكريم؛ حتى يكون لخطابه الدعوي استجابة فعلية وأثر بليغ في نفوس المدعوين وفي حياتهم، وحتى في حالة إساءة البعض للداعية فإنه يجب ألا يستفز ذلك للرد على الإساءة بإساءة، بل إن دستور الداعية في ذلك ما دعا إليه القرآن في قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا السَّبِّئَةُ أَدْمُغَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} {فصلت: 33، 34}.

9- تفعيل النقد الذاتي والقبول التام بالتقييم والمراجعة المستمرة للأخطاء، فالمراجعة في الفعل البشري أمر شرعي، كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي عليها أصحابه، ويقول -كما في صحيح البخاري-: «وَاللَّهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا أُخْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُهَا». هذا نوع من المراجعة للوصول إلى ما هو خير وأفضل، وهو توجيهه للعادة للإقرار بأوجه القصور في الخطاب الدعوي بكل صراحة وشفافية، والحرص على معالجة هذا القصور بكل أمانة وصدق □

10- الالتزام بضوابط الحوار الشرعية في الخطاب الدعوي؛ من خلال الإخلاص في البحث عن الحقيقة، والاهتمام بالموضوعية، والتواضع، والالتزام بأدب الخطاب، والسماع بعناية لوجهة النظر الأخرى، والتحديد الدقيق للمشكلة المطروحة للحوار، وقبول الحجة المنطقية، والبعد عن التعميمات في الحكم، وإجراء الحوار بحسن نية، والصبر على الرد على وجهات النظر المقابلة، والالتزام بالضوابط التسع السابقة □

أسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه □

المصدر: موقع على بصيرة □